الكتابة في ضوء التجربة الشخصية

محمد سعدون السباهي

يقول هيغل: تنبثق الفكرة على نحو أفضل، كلما احسن الفنان اختيار الشكل الامثل لها، مما يجعل تحقيق الفكرة من حيث هي مضمون، تحقيقاً لها في الوقت نفسه، من حيث هي شكل.

هذه المقولة العظيمة أفادتني فائدة كبيرة إذ رحت جاهداً، أتعقب الأساليب والطرق الفنية والسردية التي تبناها عباقرة الكتابة في العالم، اضافة الى اختيار المضمون الذي أعتقد انه الاقرب الى الغالبية العظمى من الناس، قبل أن أجلس لأمارس لعبة الكتابة الخطرة.

قصة، بلا أبواب ونوافذ: أوحت فكرتها المفزعة، غرفة دفعوني ذات يوم من عام ١٩٨٧، في فظاظة مريعة، الى داخلها عن طريق ثقب في الجدار، وليس باباً كان علي أن أحني قامتي كثيراً كي أصله!.

أنهم يعاقبونني لانني تجرأت، من دون قصد مبيت من جانبي طبعاً، ودخنت سيجارة في الشارع العام، في شهر رمضان، مما أعتبر أهانة موجهة من جانبي لمشاعر العامة المقدسة، وخروجاً وقحاً على (التوجيهات) التي سبق أذاعتها، ونشرها مرات عدة، من قبل السلطات المعنية، بالضبط والربط، في مثل هذا الامر الخطير!.

فأوصى قاض أملط الوجه، منح صلاحيات توجيه حريات الناس، في الربع الأخير من القرن العشرين، بتوقيفي حتى نهاية عيد الفطر، بتهمة: مفسد في الأرض! كانت الغرفة عارية وواطئة، واطئة على نحو يكاد يلمس سطحها باليد، مفروشة بالبصاق وأعقاب السجاير التي يبيعها الحراس للموقوفين!

يتسلى الخلق العجيب، الذي رموا به، لجريمتي ذاتها، قتلاً للوقت، الذي يدق على الرؤوس المصدوعة، في قسوة مريعة، تبدون أفكارهم على الجدران، والمشاجرات، أو أجراء مسابقات للقمل ميادينها راحات أيديهم.. فاتني ان أذكر ان الغرفة تنهض على جدارين طويلين، مقسمة الى خانات مساحة الواحد منها، متران ونصف المتر، مفتوحة على بعضها، مما يعطي انطباعاً، أنها أنشئت لتكون أصطبلاً للشرطة الخيالة، في العهد الملكي!.

قصة، أدرب نفسي على الجنون: لها أكثر من مشهد، واكثر من مكان، إذ شاهدت ذات مساء خريفي، من نافذة سيارة مسرعة، غُراباً أبيض، وسط مجموعة كبيرة من غربان سود، يهجعون في حقل مهجور، الى الجنوب من مدينة الزبير، وفي منطقة البجيلية، من القاطع العسكري الاوسط، رأيت خارج أحد الملاجئ جنديين عراقيين، في ميع الصبا، مجندلين، وبالقرب منهما رأسان مرميان ملوثان بالتراب والدم، أزعم انني سمعت أحد الرأسين يضحك، لعل صاحبه كان يضحك قبل وقوع الكارثة، فواصل الرأس مسراته!

لم نعرف أي الرأسين اللذين قطعتهما شظية باشطة، يعود الى جثته! كان القصف المدفعي شديداً، والليل يقترب، وعلينا ان نسرع بارسالهما الى الوحدات الخلفية قبل حلول الظلام، فوضعناهما كل في تابوته، متضرعين الى الله ان يجعل الرأس مع جثمانه.. وفي القاطع الشمالي شاهدت بقعة عريضة من الثلج، مشربة بالدماء، تلمع متوجة كالنار، تحت سماء شديدة الزرقة، قمت بتجميع هذه المشاهد المروعة، وغيرها، واشتغلت عليها في قصتي تلك حيث أنتهت الاحداث ببطلها الى الجنون، وأصيب بالذعر كل من قرأها!.

قصة، رماد البنفسج: سمعت ذات مرة رجلاً يتحدث بلهفة حرى، عن أمرأة نالها مرة، أو مرات عدة، أو هو في واقع الامر لم ينلها على الاطلاق، على الرغم من سعيه المستميت من أجل التقرب منها، غير أنها ظلت في منأى عنه، تضيع كأنها الماء من بين يديه، لتصبح فيما بعد رمزاً لجمال أزلي لاينال، وأنموذجاً لحب عاصف ضاع من قبل ان يرتوي منه، فأمسى أبدا في عطش رهيب اليه!.

وماكان ليحصل كل ذلك على هذا القدر الشرس من التراجيديا، لو أن وسائل الصراع بين الطرفين كانت متكافئة، ولأفضى الأمر الأخير بدوره الى عدم الجدوى من كتابة النص.

قصة، ذاكرة الأهوار: لكي أصنع من حكاية تشربت بقوة في المخيلة الجمعية لسكان القرى العديدة، المنتشرة مثل أسراب من القبرات عند تخوم هور الحمار المدهش بضمنها قريتي (البوشامة). تقول الحكاية: جاء كائن خرافي، غشوم وشره (حوته) وسكن منطقة الأهوار، فأتى على الزرع والضرع، ما دفع الناس البسطاء هناك الى مغادرة ديارها، والتشتت في أماكن بعيدة، طلباً للرزق، الى آخر الحكاية.

تحتم علي ان اخلق أسطورتي أنا، كأبن مغامر ولد في زمن عقيم، لانقل ماهو مثيولوجي، صارت تتعامل معه الناس تعاملها مع الحقائق المادية كالنار أو النقود، أو وسائط النقل، الى مناخ آخر، يهشم الاسطورة في مركزها، وحتى أفعل ذلك عمدت الى خلخلة البناء السردي التتابعي القديم للحكاية، في سياق سردي جديد، من شأنه ان يثير الفوضى في متن النص الوقور، وكان قبل هذا قد توجب علي ان تكون حكايتي أنا مكتوبة باسلوب ممتع وشيق وساخر جهد الأمكان، وتعاملي مع المفردات حذراً ودقيقاً، إذ عمدت الى وضع جدول من المفردات معينة ضمها متن الحكاية القديم، وتعاملت معها وفق جدول آخر، على ضوء قاعدتي الطباق، والترادف اللغويتين، وعبر ماأسلفت تمكنت من تهشيم قشرة الحكاية الأصلية الصلبة المخيفة والمفزعة معاً، فتحررت تبعاً لذلك (الثيمة) القديمة التي كانت بمثابة، ناب أفعى مشرعة، لتصبح مجرد عظمة أنيقة مجوفة، يمكن بعد أن زال خطرها، ان تلضم بخيط، ويعلقها الكبار أو الصغار، حول اعناقهم، للتبرك، أو الزينة!

ملاحظة: أستهوتني الحكاية كثيراً مذ سمعتها اول مرة وأنا صغير، إذ ظلت راقدة تتململ في ذاكرتي، أكثر من ثلاثين عاماً، قبل ان أقرر الاجهاز عليها، وقد فازت عام ١٩٩١ بجائزة مجلة (لوتس) لسان حال كتاب آسيا وأفريقيا سابقاً.

قصة، الضبع يتجول: بعد السقوط الدراماتيكي للنظام الفاشي، عدت الى الوطن، متخلياً عن أمكانية سفري الى أميركا، لاجئاً على ذمة المفوضية السامية لشؤون اللاجئين في عمان، في طريبيل أختفى العشرات من رجال الأمن والمخابرات، الذين كانت نظراتهم تخز المسافرين بالشك والريبة لم يكن سوى فتاتين أمريكيتين مقاتلتين، في ميع الصبا، تحرسان المدخل الى الوطن!

كلما توغلت بنا السيارة، تكشفت لنا مظاهر الدمار الشامل الذي سببه، على نحو مشين للعراق: أرضاً وشعباً وثروات (القائد الضرورة) الذي هرب من ساحة المنازلة هو و(الليثين) وبقية قطيع الذئاب، من دون أن يكونوا عند الحد الأدنى من مستوى (حنقبازياتهم والثورجية)، التي ظلوا يطرقون بها رؤوس المغفلين أربعين عاماً متصلة!

أمر رهيب كهذا، ضيع على الملايين أجمل سنوات حياتهم، وقادهم الى حتوفهم قبل الأوان، لأنهم آمنوا على نحو شنيع، أن بامكان الرعاة أن يقودوا شعباً خلاف نظرية: الراعي والشاة!

ولعل مايثير التوجس، ان هذه النظرية مازالت بوادرها الفاشية تظهر هنا وهناك، عبر خطب وتسلكات من يحكمون العراق اليوم، منذرة بمجيء طاغية جديد، وربما عدة طغاة، فلا املك إلا أن أصيح بملء حنجرتي: أيها العراقيون، خذوا حذركم، فالضبع يتجول!!

ترى، أتراني أنادي قوماً يسمعون؟!

مجلات

(أطراس)

مجلة جديدة في جامعة البصرة

عرض المدى الثقافي

من بين مجموعة من الخطوات الثقافية التي تشهدها الأكاديمية العراقية، تخطو مجلة (أطراس) خطوتها الأولى، محملة بالكثير من الوعود التي يعلنها عددها وهو ينفتح على الثقافة العربية بوجهيها التراثي والمعاصر ، مثلما ينفتح على الراهن الأبداعي في(إضاءات) عملت من خلالها المجلة علي مراجعة عدد من الأصدارات الحديثة في مجالات الفلسفة والقراءة والذاكرة ، بما يشير إلى رغبتها في أن تكون جزءاً من الحدث الثقافي داخل الجامعة العراقية وخارجها.

و(أطراس) الصادرة عن قسم اللغة العربية في كلية آداب جامعة البصرة، برئاسة تحرير أ.م ماجد عبد الحميد، وأدارة تحرير الدكتور لؤي حمزة عباس، وتحرير الدكتور عقيل عبد الحسين، تنشغل في خطوتها الأولى بعدد من الأبواب من اللسانيات إلى قراءة النص الابداعي العربي القديم إلى القراءة النقدية المعاصرة ، وقد أثارت في إفتتاحيتها عدداً من الأسئلة في معنى إنشاء مجلة خاصة بقسم اللغة العربية في مثل هذا الوقت " ألأن العراق يمر بظرف معقد واستثنائي يتطلب منا نحن الجامعيين والمثقفين أن نقول كلمتنا شاهدة على أن الثقافة هي دائماً خطاب يكتسب هويته وصدقيته وقوته من طبيعة رؤيته ومنهجه، لامما يحيط به من سياقات سياسية أو أجتماعية أو تأريخية، أم لأننا نبحث عن تقاليد جامعية في الفكر والممارسة مازالت الأكاديمية العراقية تفتقر إليها.. لهذه الأسباب وغيرها نحتاج إلى إنشاء مجلة لاتنغلق على حدودها الأكاديمية مثلما نحتاج إلى الكتابة، ولكن أية كتابة، إنها الكتابة بعد محو وإزالة ما كتب وأصبح شائعاً ومتداولاً ومتفقاً عليه، إنها الكتابة التي تدرك ذاتها بوصفها خطوة ضرورية للتحول والحراك، خطوة من خطوات الثقافة والوعي والمعرفة يطرأ عليها المحو والتبديل مثلما تسهم بتأكيدهما في تطلعها لأقتراح فضاء ثقافي دونما حدود، وهو ما رجح إطلاق تسمية (أطراس) على المجلة ،فالطرس- كما يقول الفيروزآبادي- الصحيفة محيت ثم كتب عليها".

في باب اللسانيات كتب الدكتور عبد الحسين المبارك بحثاً بعنوان" ألأستقصاء اللغوي عند المبرد في الكامل" ثم فتحت المجلة ملفها " في قراءة أبي تمام" بمقدمة عملت على مراجعة دور أبي تمام في الشعرية العربية، وهو الشاعر الذي إنتبه إلى خطورة المأزق الذي أنتهى إليه الشعر العربي بعد أكثر من خمسة قرون، مثلما إنتبه إلى مساوئ وضع تتسيد فيه سطحية المتلقي وسذاجته ويتراجع الشاعر فلا يعود قادرا على صياغة الفكر أو التعبير عن موقفه من الواقع وعلاقاته، ليفقد القدرة على التغيير والتحديث مثلما يفقد الشعردوره و أهميته ويهبط إلى درجة جعلت المرزوقي يراه " صنعة هابطة بنفسها هابطة باهلها" .. وقد توجه الملف لقراءة أبي تمام على عدة محاور: شاعراً،وناقداً في شعره وفي إختياراته، ومقروءاً عبر الشروح التي إهتمت به، ومفكراً فيه عبر نسق ثقافي سعى إلى إختلاقه ناقداً وإقصائه شاعراً، وقد أسهم في الملف : د. مزهر السوداني ، ود. مصطفى عبد اللطيف، وأ.م ماجد عبد الحميد، ود.فالح كامل، ود.عقيل عبد الحسين، وفي باب القراءات النقدية قدم د.فهد محسن فرحان بحثه حول " الصلة بين النص والمتلقي" وقدم د.شلتاغ عبود" ديوان وقصيدة" وقدم د.لؤي حمزة عباس دراسة حول النص الشعري المعاصر بعنوان " الحياة خارج الراهن"، ثم إختتمت المجلة عددها بقراءات لكتب ثلاثة:متعة الفلسفة لهكتور هوتون، وتاريخ القراءة لألبرتو مانغويل، والحريم السياسي لفاطمة المرنيسي.

وعلى الرغم من الصبغة والمجال الأكاديميين اللذين تعمل من خلالهما المجلة فأنها تعلن أنتماءها للثقافة العراقية وهي تسعى لتجديد قنواتها والأنفتاح على الممارسة الأبداعية المسؤولة سواء باحتضانها نتاجات الباحثين داخل وخارج الجامعة أو بأثارتها موضوعات ذوات فاعلية وتماس مع الحدث العراقي الثقافي منه والفكري عبر مواد وملفات تعلنها المجلة " في قراءة النص السردي العربي القديم" ، " النقد العربي المعاصر: من مشكلة الرؤيا إلى مشكلة المنهج" ، " العنف، النص، السلطة" وسواها من الموضوعات.

المرأة .. صرخة إبداعية في وجه الصمت القاهر ❖

زيد الشهيد

على قاعة روضة الشروق في السماوة أقام الفنان التشكيلي الرائد عباس حويجي معرضاً تشكيلياً بعنوان (نساء من الجنوب) بحضور جمع من المثقفين والمهتمين . وضم المعرض ٢٠ لوحة رسمت باسلوب ريشة الكومبيوتر بعيداً عن الاداء السائد.

رؤية قرائية عن المعرض

في إرهاصاته الجياشة .. من انتهاكات الزمن لكنهه الإنساني ، وحيف الإنسان للإنسان .. ومن الاحتراق الجواني للموهبة اللاهبة يستل الفنان عباس حويجي أربعين روحاً أرهقها عسف اليومي المثقل بالحزن، والكمد، والضياع، ونضوب بارقة الأمل ليزرقها على تقاسيم وجوه نسائية لم تفه بكلمة إنما صرخت بشفرة انزرعت في فضاءات نصوصه التشكيلية لتقود إلى مدلولات تفتح آفاقاً على اقيانوسات القهر التهالكي الذي يتناسل لينتج حرقة أزلية قدمت من بواطن زقورات أور ، ومعابد أوروك .

الزائر إلى معرض عباس ستصدمه لافتات الشغف وتغويه أحادية الألوان الداكنة، فللأسود هيمنة، وللرمادي هيمنة ، وللأبيض تراجع ... ستذهله الوجوه النسائية الجامدة ، البائسة ، وسترهقه الانفعالات التي ستنبثق من منابت الدواخل ، لترتفع كما الدخان الخانق إلى الصدور. تملأها، وتضيق عليها الانفاس، حتى لكأن ما يجده الرائي المتطلع تارة بذهول ، وتارات بانشداه يُحسب من عداد سحب المشاهد من عوالم الأموات المنسيين .

رسوم عباس التي كانت لريشة الكومبيوتر أداة في التشكيل تقدم نفسها على أنها عالم تشكيلي يعلن هويته الخاصة ، ويقدم تعبيره الحامل لهوية ترتقي سمة الحداثة ، وتدفع بجيل التشكيليين الذين احترفوا استخدام الريشة التقليدية والألوان بمائها وزيتها إلى الاندفاع إلى هذا الميدان الحديث ، غير المطروق من قبل فنانين آخرين .. لقد استخدم الفنان هنا في معرضه الكومبيوتر كأفضل استخدام ، كاسراً هيبة من يرى إليه آلة طباعية فقط وجداول وخطوطاً تصلح للارقام والحسابات ليس غير . استطاع الفنان هنا توظيف الريشة المهملة في قلب الكومبيوتر ليصنع عوالمه وشيئياته ، ويخلق نساءه الجنوبيات المتضخمات بخضاب الألم والفقد والاغتراب . نساء يطرحن الاسئلة بصمت ، ويلذن خلف جدران المحن وتحمل العذاب .. نساء كانت عباءاتهن السود مرموزات لا حدود لمعانيها في تفجير الألم . وشفرات يزرعن في القلب جبالاً من الغصة.

نساءٌ لا يمتلكن فعل الحدث إنّما هنَّ ينجزنَ المشهد ليتركنَ المتلقي على تأويلات منفتحة لا تعرف الحدود. ويرمينَ عليه مهمة قراءة دواخلهنَ ، وخوالجهنَ ، ومن ثم الخروج بما ينتشلهنَ من الفخاخ الأمنية المتهافتة، فخاخ نصبت لهنَ منذ أن فتحنَ الأعين على نهرٍ يجري ، وبساتين تنهض ، وظلال تأوي إليها عصافير الروح بحثاً عن خثرة السكون ، ومنذ أن رأينَ " أجا " حاكم مملكة " كيش " الأكدية يتحين الفرص للانقضاض على خصب " أوروك " وفتوتها ، ورهافتها البهائية اليانعة .

نساء عباس .. نساء الجنوب .. بنات الألم الأزلي ، والحب السرمدي ، والنقاء الذي لا ينتهي . نساؤه رغم كل رحى الزمن ، وأفعال البشر الخرقاء بقين يحتضن العفةَ ، ويستحممنَ بالشرف ... نساؤه توسدن الجراح ولم يصرخنَ ، وشربنَ العلقم ولم يفهنَ .. نساؤه الجنوبيات ، الناهضات ، الوارفات ، الرائقات ، الشاهقات ، السامقات اللائي يكتمن الصرخات ويتغاضينَ عن طعن الخناجر يصنعن المعجزات ، ويخفين جيوش الكمد الفاتكة بمهجهنَ كامتحان لضمار الجلَد . يقولنَ الصبر وهنَ منه ناضبات . ويرسمن الفرح وهو منهنَ هارب . يصنعنَ خبز الفعل دائماً ، أبداً ... هنَّ نساءُ الفنان الحافرات وجوههن على الورق رُقُماً للتاريخ عبر خطو الأجيال ، يقرؤونها ترجمة لحقب ، وتصويراً لأعوام .

في لوحاته (٢٨ ، ٢٩ : ٣٠) كان لعاشوراء حفر على أيقونة الزمن ، حيث البيارق مرموزات الشهادة أو النصر ترفرف بيد النساء (هل كانت نساءُ البيارق زينب وقريناتها في طف كربلاء ؟). وثمة الكف المحفورة بعين الحسد ، وقد تنقلنا إلى تناص شعار " الحسود لا يسود " كأحجية تناهض فعل الحسد وتشرنقات الشرور .

وفي اللوحات يترجل مرموز الألفة من خلال الطيور التي تضمها المرأة إلى دينونتها كوجود لحميمية تبعث على الأمل ، إذْ الطير ينهل من فضاء عالمه الرحب سعةً من الحرية .. ولا ننسى النبتات المزروعة في اماكنَ توحي بأن تخوم الأمل لا بدَ يوماً من أن تعطي سقيها للساق فيورق ، وللأغصان فتزهر وتثمر رغم الجرار المتناثرة في اللوحات والتي ظهر اغلبها مكسوراً أو مثلوماً كإيحاء بأن المرأة (إنساناً ووجوداً) ما من بدَ أنها تعطي من عمرها هبةً لفم الزمان الفاغر الذي لا تشبعه تهافتات المهج المتلظية ، ولا تراكمات الأعوام المحترقة ..

❖ اقيم المعرض على قاعة روضة (الشروق) ، للفترة من ٢٠٠٥/٦/٢٧ حتى ٢٠٠٥/٧/٣